التغيير قبل الاستبدال

25-8-2002

د. وسيم فتح الله

ففي قوله تعالى :" إلى موسى وأخيه " إشارة واضحة إلى ضرورة تمخض عناصر قيادية متفرغة لمشروع التغيير، ولا بد من التدبر في المقومات التي تمثلت في كل من موسى وأخيه عليهما السلام؛ أما النبوة فمعلوم أنها وهبية لا كسبية فالمعتمد – في تكرار هذا النموذج – هو حمل ميراث النبوة وسياسة الناس به، وأرجو أن نميز هذه النقطة جيداً وهي أن انطلاق مشروع التغيير لا يمكن أبداً أن يكون مرهوناً وموقوفاً على "ظهور" قيادة تتمتع بخصائص وهبية بل لا بد من تمخض القيادة من الواقع الموجود مع مراعاة وتحري الالتزام العلمي العقدي الكسبي بمنهاج النبوة، ونحن نعلم أن النبوة قد ختمت ببعثة الحبيب صلى الله عليه وسلم فما من أحدٍ منا ينتظر نبياً أو رسولاً

بقلم د . وسيم فتح الله

إن المتدبر في غاية وجودنا لا يملك معياراً لمقايسة نجاحنا في المسير سوى قول الله تعالى:" وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"، بحيث لا يمكن تصور رضا الخالق عز وجل عنا إلا بمقدار التزامنا بتحقيق هذه الغاية واقعاً بحسب الاستطاعة والتزاماً بحسب النية. وإن الإقامة على أي صورةٍ من صور الانحراف عن هذه الغاية بحيث تخرج بهذا الانحراف عن العرضية العابرة إلى الوصف اللازم المستقر يعرضنا جميعاً إلى خطر الاستبدال كما هو واضح في نصوص الكتاب:" يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتِ الله بقومٍ يحبهم ويحبونه "، وقوله تعالى:" وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم"، وقوله تعالى:" نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين. على أن نبدل خيراً منكم ونُنشأكم فيما لا تعلمون" وهي نصوص صريحة التهديد والوعيد بهذا الاستبدال الذي لا يماري أحدٌ في أن وقوعه لينبئ عن غضب الرب تبارك وتعالى غضباً لا مجال

فيه للرجعى ، وكأن الاستبدال بالنسبة للجنس هو نظير الموت بالنسبة للفرد؛ نهاية أجل وختام عمل، فإما أن يكون ختام خير أو عاقبة سوء والعياذ بالله فتأمل هذا رعاك الله.
ولئن كان الأمر كذلك، فجليٌ أن طريق النجاة من خاتمة السوء هذه محدد بأمرٍ واحد يتمثل في الانسلاخ عن الواقع الذي يتهددنا الله تعالى بالاستبدال لأجله. والنظر في ظواهر النصوص المتقدمة يفرض علينا عدم الردة في الدين وعدم الشركة في حب الله وعدم التولي عن أمره سبحانه وتعالى والسعي الحثيث نحو الترقي في مراتب الخيرية الشرعية، وإلا فإنه الاستبدال؛ سواءٌ أكان استبدال أمة أم استبدال نوعٍ بأسره. وإذا كانت مثل هذه الخاتمة أكثر ما تكون نأياً بالعبد عن مراتب العبودية المقربة من الله تعالى كانت بلا شك غاية الخسران والحسرة والثبور، وأي شيءٍ أشد على العبد من أن يكون بعيداً عن سيده ومحبوبه الأوحد، وأي شيءٍ أضر على العبد من تلك الصورة الكئيبة :" نسوا الله فنسيهم"، أي شيء؟..
فإذا ما تنبهنا معاشر المسلمين من غفلتنا وأنعم الله تعالى علينا باليقظة منها وجب علينا النظر في السبيل إلى التخلص من هذا الواقع المقيت، ولا ينبغي لنا الاستسلام لشعور التثبيط والهوان والإحباط والهزيمة، لأن معوقات المسير مهما كانت، وتردي الواقع مهما بلغ، فإنه لا يصل – ولن يصل – إلى الحد الذي يُعجز منهاج القرآن الكريم في التغيير أبداً.
ولكن لا بد من مراعاة طبيعة الواقع الذي نعايشه حتى نختار المنهج القرآني العملي المناسب للمرحلة ليكون أدعى للنجاح بإذن الله. وإذا كنا نتفق – فيما أحسب – أن الحال

حال استضعاف وكبت وتسلط عدوٍ داخلي وخارجي فلا بد من البحث عن نموذج مماثل في القرآن الكريم استطاع فيه أتباع الحق التلبس بمعالم التغيير السلوكي العملي ليكون وسيلةً لتغيير الحال والواقع وجعله منقاداً لأمر الله عز وجل. ولقد تأملت في كتاب الله عز وجل فوجدت فيه عجباً؛ وجدت إعجازاً إلهياً خارقاً يتمثل في منهجٍ سلوكي عملي رباني فريد يشهد لصحته عصمة الوحي كما يشهد لها رصيد تاريخي يؤكد على نجاح هذا المنهج عند التزام حيثياته، وليس هذا المنهج مبسوطاً في كتب ومراجع ولا هو بحاجة إلى استعارات من تجارب أمم الكفر والضلال، وإنما هي كلمات تجمعها آية واحدة، نعم آية واحدة فيها – فيما أحسب وأحسن الظن بالله تعالى – مخرجنا من هذا المأزق الذي نعيش، فلنتدبر: الحال حال بني إسرائيل - أتباع موسى عليه السلام – وهم يعانون أحط درجات الذل والهوان تحت طغيان المجرم فرعون وحاشيته، والهدف الخروج من هذا الواقع خروجاً علمياً عقدياً وخروجاً حسياً مادياً – وتنبه لضرورة ولزوم هذا التزاوج – فكيف العمل؟ قال تعالى مرشداً موسى عليه السلام إلى خطة ومنهاج التغيير الشامل والمعجز:" وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلةً وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين"(يونس 87). يا الله، يا الله .. ما أبدع هذه الآية وما أشد إعجازها وما أبلغ بيانها، ليس فيها حشو زائد ولا تفويت ركنٍ لازم، لقد تأملت في هذه الآية مراراً وتكراراً ووجدت أنها تمثل بحق المنهج العملي للنهوض بالأمة، وإني أدعو كل إخواني إلى قضاء اللحظات التالية معي في ظلال

هذه الآية على أن نتعاهد على أن ننفض من هذا المجلس عازمين على مزيد تدبر في جزئيات هذه الآية وحيثياتها من جهة، وعلى التزام جزئية سلوكية عملية واحدة منها على الأقل في حياتنا الشخصية حتى نقرن القول بالعمل والعلم بالتطبيق. وسوف لن أفسر هذه الآية وليس كلامي التالي تفسيراً لها فما أقل بضاعتي في ذلك، ولكنني سأشارككم – إن شاء الله – ما رأيته فيها فإن كان صواباً فمن الله تعالى وإن كان غير ذلك فمن نفسي الخاطئة فلا يضنن أحد علي بالتصويب والتوجيه عند ذاك، والله المستعان، فإلى الآية الكريمة: "وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلةً وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين"القاعدة الأولى : لزوم تحرير مصدرية منهج التغيير: إن أول ما تبادرنا به الآية قوله تعالى " وأوحينا " إذ هي تحدد وبشكلٍ صريحٍ جداً لا مراء فيه أن مرجعية التوجيه والتسيير في سياق التغيير الشرعي لتحقيق الغاية الشرعية هو الوحي والوحي فقط. أما استفادتنا كون مصدر التخطيط والتوجيه هو الوحي فمن ظاهر اللفظ، وأما استفادتنا استقلال الوحي بهذه المصدرية فقد استفدناه من إسناد الوحي إلى الله تعالى فكان لازم ذلك الاقتصار عليه ، إذ إن التردد بين هذا المصدر وغيره أو إشراك مصدر آخر معه يثير في النفس تساؤلات عديدة عن مدى اطمئنان القلب إلى حكمة الله وعلمه وتوجيهه مما لا يليق بنا معشر المسلمين، وإلا فما معنى التلفت يمنة ويسرة وقد أوحى الله تعالى بالجواب وأشار إلى معالم الطريق؟!

إن قاعدة الانطلاق الأولى في مسيرة التغيير إذاً هي تحرير مصدر التلقي ومرجعية التوجيه، وكل ما عدا ذلك يضرب بعرض الحائط ولا يؤبه له البته؛وك ل ما عدا ذلك إضاعة للوقت والجهد، فاعلموا إخواني أن أسلم الطرق وأيسرها طريق : " سمعنا وأطعنا" ومنهج : مِن الله الأمر وعلى الرسول البلاغ وعلينا السمع والطاعة، وإن أشقى الطرق وأعقدها وأقلها بركة وفائدة طريق : بحثنا ونقبنا وأضعنا ... ومن فوائد التزام هذه القاعدة تحرير النية والتجرد لله تعالى، فالاقتصار على توجيهات وأوامر الرب تبارك وتعالى علامة على ابتغاء مرضاته فحسب وهذا مقتضى الألوهية ، ودليل اطمئنان القلب وثقته بالله تعالى وهذا مقتضى الربوبية، ودليل تيقن علمه وحكمته وتدبيره وهذا مقتضى توحيد أسمائه وصفاته فاجتمع لنا بهذه العمل أنواع التوحيد الثلاثة، وكلما اختل واحد مما سبق اختل ركن من أركان التوحيد وتزعزع بنيان التغيير وآل إلى زوال وانهيار، فتأمل هذا فإنه دقيق جداً.القاعدة الثانية : قيادات التغيير:ففي قوله تعالى :" إلى موسى وأخيه " إشارة واضحة إلى ضرورة تمخض عناصر قيادية متفرغة لمشروع التغيير، ولا بد من التدبر في المقومات التي تمثلت في كل من موسى وأخيه عليهما السلام؛ أما النبوة فمعلوم أنها وهبية لا كسبية فالمعتمد – في تكرار هذا النموذج – هو حمل ميراث النبوة وسياسة الناس به، وأرجو أن نميز هذه النقطة جيداً وهي أن انطلاق مشروع التغيير لا يمكن أبداً أن يكون مرهوناً وموقوفاً على "ظهور" قيادة تتمتع بخصائص وهبية بل لا بد من تمخض القيادة من الواقع الموجود مع مراعاة وتحري

الالتزام العلمي العقدي الكسبي بمنهاج النبوة، ونحن نعلم أن النبوة قد ختمت ببعثة الحبيب صلى الله عليه وسلم فما من أحدٍ منا ينتظر نبياً أو رسولاً لقيادة عجلة التغير، ولكن البعض منا – للأسف – يعلق مشروع التغيير على ظهور "صلاح الدين " جديد أو ربما ظهور المهدي – وهو حق كما أنبأت بذلك السنة الصحيحة – أقول: إن انتظار أفراد بأعينهم لن يغني عنا من الله شيئاً لأننا مطالبون بالعمل على قدر الاستطاعة وهذا يعني أن تتمخض على الفور قيادات من الواقع الموجود مع انتحال منهاج النبوة قدر الاستطاعة. أما المقوم الثاني من مقومات الشخصية القيادية التي نراها في موسى وأخيه عليهما السلام فهو قبول الناس لهم، ومشاركتهم وفهمهم هموم الناس ومعاناتهم المرحلية والتعرف على طبيعة الظروف المحيطة بهم، إذ أن انبثاق عناصر القيادة في مشروع التغير من وسط المعاناة ومن عمق الواقع أدعى لثقة الناس وأمكن في قلوبهم وأشرح لصدورهم. فموسى وأخوه عليهما السلام لم يكونوا يوجهون القاعدة الشعبية من بروجهم العاجية، ولم يكونوا ينشرون مشاريع الإصلاح والتغيير وهم منغمسون في لعاعة الدنيا بل كانوا في عمق المعاناة وقاسوا من شدتها مثلما قاسى أتباعهما، وهكذا تكون القيادة وهكذا يكون التغيير. ودعوني أستطرد قليلاً هنا فأقول : إن على من يتوسمون في أنفسهم اليوم أي مقدرة قيادية أن ينزلوا إلى الميدان، وميداننا اليوم هو بلاد الإسلام، إن الناس لن يستمعوا لكم والسياط تلهب ظهورهم وأنتم تنعمون "بالأمن" في رحاب دولة كافرة، وإن الناس لن يغيروا شيئاً وهم على جانب

الأخدود وأنتم تحضرون البيان الصحفي القادم وتتهيأون للاجتماع التنسيقي اللاحق، لا ، انزلوا إلى الميدان، هاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام كما تدعون الناس إلى الهجرة من حال المعصية إلى فلاة الله الرحبة، إن القيادة الناجحة هي التي تكون في وسط الميدان ، أما تلك التي تختبئ وتنزوي بعيداً عن أرض التغيير فلن يكون لها أي أثر في مشروع التغيير... فعودوا إلى دار الإسلام كما عاد موسى عليه السلام إلى مصر ، وافعلوا في أرض الإسلام ما فعله موسى بمصر..

يتبين لنا من هذا الاستقراء السريع أن على قيادات التغيير أن تتمتع بعنصرين مهمين: أولهما السير على هدي النبوة علماً وعملاً، وثانيهما التجانس والتفهم لطبيعة القاعدة الشعبية التي يتعامل معها القياديون قدر الإمكان، ولعل هذا هو السر في اشتمال أهل الحل والعقد في منظور السياسة الشرعية على الرموز العلمية وعلى الوجوه الاجتماعية التي ينصت لها الناس ويقرون لهم بالرئاسة. وهذا يفرض على حملة ميراث النبوة إيجاد صيغ تفاهم وتعاون مقبولة شرعاً مع القوى السياسية والاجتماعية الفاعلة يراعى فيها طبيعة المجتمع والبيئة التغييرية لأن ذلك أسرع في تجنيد سواد الناس، فلا بد من تفيعل نظام القبيلة والعشيرة واستثماره استثماراً ناجحاً في التأثير على بطون القبيلة مثلاً ، أو تحديد رموز التأثير الاقتصادي والاجتماعي والفكري في المجتمع والتحاور معها لتوظيفها في التأثير على سواد الناس، وغير ذلك من الحيثيات التي تظهر عند دراسة طبيعة كل مجتمع إسلامي دراسة تخصصية منهجية دقيقة، وكما يقولون: أهل مكة

أدرى بشعابها. ولكن لا يعني هذا حصر العناصر القيادية حصراً قائماً على الجنس والعرق واللون، غاية ما في الأمر أنه كلما أمكن مراعاة ذلك كان أدعى لاستجابة الناس، وإلا فإن الحق لا يعرف جنسيات ولا قوميات ولا عصبيات.وهنا نكتة دقيقة؛ إن الإشارة إلى موسى وأخيه عليهما السلام باعتبارهما الرموز القيادية يعود – بالنسبة لخصوصية التجربة المذكورة – إلى كونهما أنبياء الله تعالى بلا شك، والله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، ولهذا نقول بكل ثقة إن ما يلزم الشعوب المسلمة والسواد الأعظم من المسلمين في مرحلة التغيير وفي سياق المشروع الإصلاحي الشامل هو الانقياد والخضوع للتوجيهات القيادية التي تمثل المنهج العلمي العقدي، أما الملابسات القيادية الأخرى من تنظيم وأطر حركية وخطط تنفيذية فليس لأحد أن يلزم الناس بها أو يفرضها عليهم فرضاً، كما أنه ليس لأحد أن يحاكم سواد المسلمين إليها، وبالمثال يتضح المقال: عندما يفتي علماء المسلمين بحرمة مظاهرة الكافر على المسلم فهذا حكم شرعي منبثق من حملة ميراث النبوة وهو حكم ملزمٌ ديانةً لكل مسلم، أما حين تقرر بعض القيادات والتجمعات المسلمة وسيلةً أو مشروعاً جزئياً يندرج في باب الوسائل لا باب المقاصد فإن المسلم في حلٍ من حتمية التزام هذا الإطار الحركي أو ذاك، اللهم إلا من لزوم التعاون على البر والتقوى إذا تعين ذلك منه. إن فهم هذه الحيثية وتطبيقها وحملها معنا في جهدنا التغييري كفيلٌ – بإذن الله – بالحفاظ على أوسع انخراط شعبي في المشروع الإصلاحي، أما أن نلهب ظهور الناس بسياط البيعة (المغلوطة) وحصر مفهوم

الجماعة الملزمة في أطرٍ حركية ضيقة فلا يؤدي إلا إلى بعد الشُقة بين المسلمين، ولسوف تدفع بالسواد الأعظم من المسلمين إلى الانكماش والتقلص لأنها لم تعد ترى في العمل التغييري مشروعاً إسلامياً بل ترى فيه مشروعاً فلانياً ومصالح شخصية وتنازعات وأهواء تذهب بهاء هذا العمل الجهادي المبارك. القاعدة الثالثة: شمولية التغيير لكافة الجماهير :حيث قال تعالى :"أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً" فجعل عملية التغيير التي استلهمتها قيادات الأمة العلمية من الوحي المعصوم مستهدفةً لكافة شرائح وقطاعات الأمة؛ والسر في ذلك بسيط وهو أن عملية التغيير المأمور بها والموحى بها من الله تعالى ليست إلا مظهر رحمة الله تعالى ورأفته بهذه الأمة حيث يعود بها من جادة الغي والضلال إلى صراط الله العزيز الحميد، إنها عملية إنقاذ من النار وزحزحةٍ من بلاط جهنم، فبأي حق وبأي وجه نقصر هذا العمل والتغيير على قطاعاتٍ بعينها ونستثني قطاعاتٍ وشرائح بعينها؟ كيف نحجر رحمة الله الواسعة ونقصرها على قمة الهرم أو " النخبة " أو " الطليعة" ، كيف؟

سؤال أسأله نفسي وإياكم وليجب كل منا عليه بصدق: كم مرةً وأنت منهمك في التفكير في أمر الدعوة والتغيير والإصلاح الشامل كم مرةً نظرت إلى سائق سيارة الأجرة الذي يوصلك إلى ذلك اللقاء المهم أنه هو جزء من عملية التغيير، وأنه يستحق منك أن تشاركه الكلام والتفكير والتدبر في شؤون هذه الأمة؟ ودعني أعيد صياغة السؤال: كم مرةً مررت بحارس البناء الذي تعيش فيه فحدثتك نفسك أنك في وادٍ وهو في وادٍ، أنت داعية إلى الله ومسلم ناشط ومهم

وهو مجرد حارس بسيط لا يستحق أن تتوجه إليه ولو بفكرة أو خاطرة، وقد يكون أكثر الناس استجابةً لك لولا أنك قصرت همتك على النخبة والطليعة وعلية القوم؟..

إن السر البديع في هذه الآية الكريمة أنها لم تهمل أحداً في سياق مشروع التغيير ولم تستثنِ أحداً من مسؤولية التغيير؛ فالكل له حق تلقي التوجيه والكل عليه مسؤولية الاستجابة بحسب ما هو فيه من موقع ومقدرة وتوفيق من الله تعالى.

وتتجلى روعة هذه اللفتة القرآنية في أن مقاربة مشروع التغيير بهذا الاتساع والشمول يفتح أمام سواد المسلمين ما لا ينحصر من فرص ومجالات العمل والمساهمة في هذا المشروع، لأنك حين تقصر الخطاب الإصلاحي على القلة فلن يتمكن من التصدي له إلا القلة في حين يتردى باقي المجتمع في أودية التخذيل والإحباط والشعور بعدم الأهمية، أما عندما نقول إن إماطة الأذى من الطريق جزء من مشروع التغيير، وإن التبسم في وجه سائق سيارة الأجرة أو عامل جمع القمامة هو جزء من مشروع التغيير، وإن إجابة دعوة جارك المتواضع جزء من عملية التغيير .. عندما نقول ذلك فإننا نقول للجميع بلا استثناء : يمكنكم أن تكونوا أنتم جزءً من عملية التغيير!

ولكن هنا نكتةٌ دقيقة أيضاً وهي أننا – بالإضافة إلى ما تقدم – نريد من شمولية مجال التغيير أن نرتقي بأوسع شريحة ممكنة من الجماهير إلى المرحلة الأعلى ثم التي تليها عبر نظام أفقي متدرج لا عبر نظامٍ هرميٍ متقلص؛ بمعنى أن الهدف من هذا الاستهداف الجماهيري الواسع هو النهوض بهذه الجماهير فعلاً من مرتبة إلى التي تليها ومن حالة إلى

التي تفضلها، وليس الهدف مجرد سبر وغربلة الجماهير للعثور على "النخبة " وتجنيدها في مشروعنا الحركي الشخصي، فتنبه! ولسوف تدرك أهمية هذه النقطة وروعة التعامل القرآني معها بمزيدٍ من التدبر والتفكر إن شاء الله.وقبل الانتقال إلى القاعدة التالية لا بد من الوقوف قليلاً مع قوله تعالى " وتبوءا ...بيوتاً"، ما هي هذه البيوت؟
إن هذه البيوت – في نظري والله تعالى أعلم – تمثل حلقة الوصل المفقودة ما بين الإصلاح الفردي والإصلاح القيادي؛ ولطالما اختلف دعاة الإصلاح حول طريق التغيير أيكون من أدنى إلى أسفل وفق منهج التصفية ثم التربية المتدرج أم يكون من أعلى إلى أسفل لأن التغيير المرتجى لن يتم طالما الأسباب المعيقة تحد من نموه العمودي نحو الأعلى؟ هل نبدأ بالفرد ونقف عنده، أم هل نركز على السلطة ونشنها حرباً لا هوادة فيها ثم "نفرض" التغيير؟ لا شك أن الميل نحو أحد السبيلين والاقتصار عليه بالكلية إفراط ينأى عن الحق، وهنا يكون إعجاز هذه الآية متمثلاً في تحديد " حلقة الوصل" بين الفرد الممثل للقاعدة الجماهيرية والكيان السياسي الأوسع الذي تتمثل فيه السلطة الحاكمة، وهذه الحلقة الوسط لا بد أن تكون هي البيوت بمعناها الوظيفي، وتنبه إلى أنه لا بد من إضافة شيء من التخصص الوظيفي لهذه البيوت، ونظراً لدقة وأهمية هذه المسألة فسوف أستطرد فيها قليلاً إن شاء الله:لا بد من تحويل الإحباط الفردي الناجم عن تحقق الجاهزية الإيمانية للتغيير ومن ثمَّ الاصطدام بجدر السلطة المانعة إلى طاقةٍ عمليةٍ تندفع إلى قنواتٍ أكثر تأثيراً من الفرد دون استباق المجابهة مع القوى

الحاكمة والأسباب المانعة من التغيير. إن على الأفراد الذين يجدون في أنفسهم الجاهزية الإيمانية أن يتريثوا ولا يتسرعوا في الترقي عمودياً قبل أداء دورهم في التوظيف
والاستقطاب الأفقي حتى نجند أكبر نسبة ممكنة من الجماهير لمرحلة المجابهة إن تحتمت. ولا بد لهذا الانتشار الأفقي للدعوة من أن يقوم على أساس تربية ربانية مشفوعة بإعدادٍ مادي سببي ترتفع به المسؤولية عن كواهلنا وتمكن لنا التوكل على الله تعالى حق توكله بعد أن استفرغنا وسعنا في الإعداد.

إن مرحلة الانتشار الأفقي قد تعني في أبسط أشكالها أن ينكب أحدنا على توسيع أسرته بمزيد من الإنجاب والتكاثر مع التركيز التربوي على تشكيل روافد تزوِّد آلة التغيير بالوقود، وقد تعني مرحلة الانتشار الأفقي في صورة أكثر نضجاً وتكاملاً تشكيل تكتلات إسلامية وظيفية على أساس المهنة المشتركة أو الطاقة العلمية المشتركة أو الرابط الاقتصادي المشترك أو التكافل الاجتماعي أو نحو ذلك، بحيث تنصرف هذه التكتلات إلى أمرين اثنين: أولهما التكافل بين أفراد هذه التكتلات بما يضمن تفرغاً جزئياً لكل منهم للقيام بواجب الدعوة والتغيير والجهاد، وثانيهما التركيز على الانتاج الذي يخدم عملية التغيير كلٌ بحسب تخصصه.

وإن مرحلة الانتشار الأفقي هذه هي التي يجب أن نركز عليها جهودنا تركيزاً جيداً لأننا في مرحلة استضعاف لا تسد ثغراتها جهود الأفراد وحدهم وفي مرحلة تسلط خياني لا يعولُّ معه على النظم الحاكمة في بلاد المسلمين. إن عملية التغيير بهذا المنهج أشبه ما تكون بأسلوب حرب العصابات

في المجال العسكري؛ ولكنها حرب عصابات اجتماعية وعلمية وفكرية ومادية وإصلاحية لا تهارج فيها ولا فتن وإنما عملٌ واعٍ مدروس، وإن كثرة الثغور ووضوح معالم الطريق لشتى الجزئيات المستهدفة لا يضطرنا إلى الانخراط في أطر تنظيمية محدودة مكشوفة يسل وأدها في أي مكان وزمان، بل إن انتشار عملية التغيير هذه يجب أن تعني أن وأد عملية التغيير هو وأد المجتمع الإسلامي بأسره وليست مجرد زج بعض الأفراد في السجون!

وإنني أدعو إخواني وأخواتي في كل مكان من العالم الإسلامي أن ينهمكوا في مشروعٍ جزئي مع من يثقون بدينهم وإخلاصهم وليوجهوا كل طاقاتهم إلى هذا المشروع مهما كان صغيراً في المعيار النسبي، ولا تحسبوا أنكم وحدكم، وإذا ما استشعرتم غربةً ووحشةً فاستحضروا إخوانكم الذين تمثلوا مشروعهم الشخصي مرابطةً عند ثغرٍ من ثغور المسلمين يذبون عنا وعن أعراضنا نعم هؤلاء الذين يعيشون معنا اليوم في أصقاع المعمورة وقد حددوا لأنفسهم مشروعهم الجزئي هؤلاء هم – بعد الله تعالى – خير أنيس لك في غربتك، حاول أن تستحضر ما يكابدونه من وحشة وألم وحاول أن تعيش ولو لحظةً واحدة ما هم فيه من طيب نفسٍ وطمأنينة قلب، وثق أنك لن تجد للطريق وحشته المعهودة بل ستجد فيه أنساً ولذةً هي أقرب لما قال بعض السلف : إن كان حال أهل الجنة على ما نحن عليه إنهم إذاً في عيشةٍ طيبة!

القاعدة الرابعة: الإعداد الرباني :وهذه القاعدة – من الناحية التطبيقية – هي أهم ركن في منظومة التغيير هذه، وهي ما

يشير إليه قوله تعالى:" واجعلوا بيوتكم قبلةً وأقيموا الصلاة ". ولا أريد الخوض في الآراء التفسيرية للمراد بالقبلة في هذه الآية بقدر ما أريد أن نستسلم للجو الرباني الذي تضفيه هذه الكلمات المعجزة على عملية التغيير؛ إن دعاة التغيير والإصلاح من هذه الأمة المباركة ليسوا لصوصاً أو قطاع طرق، وليسوا شرذمةً من الناس ليس لديهم ما يشغلهم، كلا والله، إن الغيورين على محارم الله وحدوده ثلةٌ إيمانيةٌ عرفت معنى الإيمان فذاقت حلاوته، وعرفت حق الإله ففنيت في عبادته، وعرفت زوال الجسد فلم تبخل بالتضحية به، وعرفت حقيقة المال فسلطته على هلكته بالحق؛ ولكن أنى للنفوس أن ترتقي إلى هذا المعراج الإيماني دون رياضة وتعبد يليق بمثل هذا المقام؟

إن أي داعية إصلاح وتغيير لا يتمثل جيل أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم قدوةً له في هذا السياق ليس بشيء، وإذا كان ذلك الرعيل الأول هو القدوة فلننظر كيف كان الإعداد له ولقائده العظيم، فلنتدبر: " يأيها المزمل . قم الليل إلا قليلاً . نصفه أو انقص منه قليلاً . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً . إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً. إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً" (المزمل 1-6). نعم هذا هو الإعداد الرباني من حيث الكيف، أما من حيث الكم، فكلنا يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكثوا عاماً كاملاً يقومون الليل فرضاً في صدر الدعوة قبل أن ينزل عجز الآية بالتخفيف عن الصحابة (مع بقاء الفرضية في حق النبي صلى الله عليه وسلم على قول) حيث أنزل الله التخفيف :" إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل

ونصفه وثلثه وطائفةٌ من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرؤوا ما تيسر منه " ولكن تأمل كيف أن التخفيف كان منوطاً بتوزع مهامٍ شتى على أفراد المجتمع – ما عدا أصحاب الأعذار – كالضرب في الأرض والقتال في سبيل الله، وهذه إشارة أخرى إلى أهمية التخصص الوظيفي التي أشرنا إليها في القاعدة السابقة.

إذاً نحن بحاجة إلى إعداد رباني، وها قد قدمت بين يديك التوجيه القرآني مقروناً برصيد تجريبي فريد من واقع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وحياة أصحابه؛ إن الإعداد لهذا العمل العظيم يستلزم استنهاض الهمم وعلامات الصدق وقهر النفس واستعلائها على الجسد، وليس عبادة تعالج هذه الأدواء وتفتت هذه الموانع كعبادة التهجد وقيام الليل، وليكن هذا أول مشروع شخصي لكل واحدٍ منا ولنبدأ بالقليل ونرتقِ إلى الأكثر مع المثابرة والمصابرة، ولننتظر عاماً واثنين وأكثر إن احتاج الأمر فالأمر ثقيل ولا بد له من إعداد وهكذا يكون الإعداد.

وإن من أولى فوائد هذا الإعداد الرباني هو شحذ همة النفس من خلال الشعور بالتغيير العملي الفعلي الذي سيقع في حياتك عندما تقلبها رأساً على عقب لله تعالى ، ستدرك حينها أنك تستطيع بإذن الله أن تقلب الدنيا كلها رأساً على عقب فيما يُرضي الله تعالى ولا تبالي... القاعدة الخامسة : وبشر المؤمنين: إن الجمع بين منهج الإعداد الرباني هذا مع

منهج التخصص الوظيفي والانتشار الأفقي الذي يتخذ من وحدة الأسرة أصغر مجالٍ للعمل وأصغر وحدةٍ للبناء كفيلٌ – بإذن الله تعالى – بأن يحوِّل بيوتنا إلى معسكرات عمل وعبادة قريباً ما تترجم إلى جسور تضحيةٍ وإمداد لجحافل هذا الدين العظيم،
وإني والله لأشتم غبار النقع تثيره أعاصيرٌ إيمانيةٌ لا ترى لها غايةً تقف عندها إلا إرغام أنف الكفر ورفع راية التوحيد،
ولكن الأمر بحاجة إلى الصبر؛ صبرٌ على البلاء وصبر على الطاعة وصبرٌ عن المعاصي، وليس من ماء يروي غرسة الصبر في قلوبنا كبشارة الله تعالى لنا :" وبشر المؤمنين" هكذا دون تفصيل ودون حيثيات، وهل يحتاج من جاءته البشارة من الله تعالى إلى تفصيل واستفهام...إخواني في الله، هلا جلسنا اليوم قبل الغد وسألنا أنفسنا : أي جزءٍ من حياتي سأضحي به اليوم في سبيل الله؟ وكم من وقتي سأكرس للدعوة والتغيير في سبيل الله؟ كم ولداً سأقدم لله؟ أترافقني زوجي في هذا الطريق فتؤنسني أمام تجذبني إلى الدنيا فتثبطني؟ كيف أُحدث ذلك الزلزال في حياتي؟ كيف أنتفض وأقوم وأعمل ؟ كيف أقترب من الله قبل أن يقترب منا أجل الله، كيف؟
إخواني في الله، ها قد عشنا معاً لحظاتٍ في ظل آية واحدة من كتاب الله المعجز وإنما هي خواطر تظاهرت لي ولما نتعمق بعد في أبعاد هذه الآية ، ولئن كان الحال كذلك في آية واحدة، فما بالك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أيعقل أن نضل بعد هذا، إني والله بعدما عاينت هذه الآية خشيت؛ خشيت أن يكون ضلالنا عن الحق إضلالاً لنا من

الله تعالى عقوبة إعراضنا عن منهجه القويم، فهل لنا من رجعة قبل ألا أوان رجعة، هل لنا أن نبدأ التغيير قبل أن يكون الاستبدال...

د. وسيم فتح الله